

## الشيخ ناصر.. فكر حضاري في عالم جامد

التقيته أول مرة عام 2006 م في مكتبه بقصر بيان ، كان ذلك بعد فترة وجيزة من توليه منصب وزير شؤون الديوان الأميري ، استمعت إليه وهو يتحدث بهدوء لا يخلو من الحماس وببساطة لا يغيب عنها العمق وبترتيب جميل وعملي حول مشروع المراكز الثقافية ، ثم أبلغني بترشيحه لي أن أكون ضمن لجان التحضير لهذا المشروع الحيوي ، ولأنني كنت قد تركت منصبى كنائب مدير عام للمعلومات في معهد الكويت للأبحاث العلمية فقد رغبت في إيضاح ذلك ظناً مني أن ترشيحي لهذا العمل مرتبط بمنصبى الذي رحلت عنه ، إلا أنه أزاح هذا اللبس مؤكداً علمه بذلك وأن الاختيار ليس له علاقة بوظيفتي السابقة .

في اجتماعه الأول باللجنة التحضيرية تحدث الشيخ ناصر صباح الأحمد عن مشروع إنشاء مركزين ثقافيين؛ الأول يحمل اسم الشيخ جابر الأحمد، أما الثاني فباسم الشيخ عبدالله السالم ، ثم استمع لوجهات نظر الجميع قبل أن يوجهنا نحو العمل بديناميكية وعزيمة أكبر مؤكداً إصراره على أن يخرج المشروع للنور دون تأخير وأن لا يخضع للتأجيل أو التسويف، ولعل من لمحاته الذكية في بدايات العمل أنه لاحظ أن اللجنة تضم عدداً كبيراً من العناصر ذات التخصصات الثقافية والأدبية والفنية والمعلوماتية المتعددة والمتشعبة ، فعمد إلى اختيار مجموعة محدودة من بين الأعضاء لإدارة العمل وتنظيم الأفكار وترتيب الأولويات ، وقد تم تكليفي بمهام نائب الرئيس قبل أن أتولى رئاسة تلك اللجنة المصغرة في وقت لاحق .

اتخذت اللجنة من أحد أروامبنى مركز الوثائق التاريخية التابع للديوان الأميري في منطقة " شرق " مقراً لها وسرعان ما دارت عجلة العمل وقمنا بالعديد من اللقاءات مع شخصيات خبيرة وذات

تجارب ملهمة في المجالات الثقافية والتراثية والفنية وغيرها ، كما التقينا بعناصر شابة ، وساعدتنا حصيلة تلك اللقاءات على استشراف الرؤى والأفكار وفي النهوض بتصميم مشروعاً يحمل آمال الناس وهوية الوطن وتوجهاته في الحداثة ، وأردنا في اللجنة أن نضع في كل مركز بعض سمات من يحمل اسمه ، فحفظنا أن تكون في مركز جابر الأحمد الثقافي الشخصية العلمية والمعرفية والهوية الفنية الأصيلة ، استناداً إلى ما عُرف عن الشيخ جابر الأحمد، رحمه الله ، من اهتمام بالمؤسسات العلمية والتراث الفني الوطني والإسلامي ، وأن نستحضر في مركز عبدالله السالم سمات من شخصية أبو الدستور عاشق التراث والشاغف بالشعر .

خلال كل ذلك ، وقبل أن يحال المشروع بالكامل إلى الديوان الأميري ، كانت هناك العديد من اللقاءات مع الشيخ ناصر، الذي عمل دوماً على تسديد الخطوات دون إملاء أو رغبة في الظهور والتعالي ، وقد كشفت الحوارات والنقاشات معه أبعاداً رائعة وعميقة في فكره ، وقد عرفته من خلال كل ذلك شخصية مدهشة مليئة بالمعرفة ، مستمتع ممتاز، يُظهر احترامه لكل إنسان يلتقيه ، حاضر الذهن متوقد الفكر، عفويته وطيبته الفطرية لا تُغيب حكيمته ، روح التفاهم التي تملأه لا تُبعد مواقفه عن صلابة وفراصة ربابنة السفن، يمتلك عين خبيرة وضمير سليم ، وجدته يكتسي ملامح الكويت ويرتدي ثوب حضارتها حينما تنسجم في روحه وسيرته الأصالة مع المعاصرة ، والتنمية بالاقتصاد ، وقد مكنه كل ذلك من إنتاج العديد من المبادرات والمشاريع والخطط الكبرى ، ولعله من سوء حظ الكويت أن الفرصة لم تُعط له مبكراً .

شغف الشيخ ناصر بكل ما هو أصيل وقديم وبالآثار التراثية بدأ منذ دراسته لمدة سنتين بالقدس وهو لا زال ناشئاً يافعاً حيث تأثر بالأجواء القديمة هناك وبالحواري التي تنطق حوانيتها ومبانيها

وجدرانها بأسرار التاريخ وأحداثه.. هذا الشغف جعل منه جامعاً للآثار وخبيراً ملهماً لا يشق له غبار، كما أن تمسكه بالجذور دفعه مع زوجته الشيخة حصة صباح السالم الصباح - ابنة أمير الكويت الثاني عشر - إلى تكوين وحفظ وحماية مجموعة نادرة من التحف وقطع الآثار الإسلامية في منظومة تمثل الامتداد التاريخي والجغرافي للعالم الإسلامي، وضمت تلك المنظومة أكثر من 30 ألف قطعة بها ما بها من تحف، ومخطوطات، وخزف وأحجار كريمة، وزخارف معمارية، وجواهر، ومنسوجات وعملات، وأجهزة علمية، تشكل في مجملها مرجعاً مهماً في مجال الآثار الإسلامية، ثم كانت نظرتهم التنموية بتنظيم تلك المقتنيات في معرض شامل وقد شاركت مجموعتهما الأثرية بشكل ثابت ومنذ ثمانينات القرن الماضي في متحف "الميتروبوليتان للفنون" بنيويورك، والذي كان الشيخ ناصر عضواً فخرياً في مجلس أمنائه، ويعتبر هذا المتحف من أشهر وأضخم متاحف العالم تأسس سنة 1870م واحتوى آثاراً من جميع الحضارات البشرية، وقد ضم المتحف 18 قطعة من تلك المجموعة في معرض "البلاط والكون.. عصر السلاجقة العظيم" في حين تعرض 300 قطعة أخرى في أحد متاحف مدينة هيوستن بولاية تكساس، وقد كان تنظيم تلك الآثار (التي عرفت بـ "مجموعة الصباح") في معرض شامل خطوة أولى تلتها الإنجاز الأهم بتحويلها إلى مشروع أكبر بإنشاء دار الآثار الإسلامية في الكويت، وقد قدم الشيخ ناصر والشيخة حصة من خلال تلك الدار إضافة جديدة للثقافة في صيغتها العالمية بتدشين مركز اليرموك الثقافي بما يقدمه من معالم وأنشطة ثقافية لها قيمتها وغناها.

إن هذا الاهتمام بنوعية من التراث الإنساني الرفيع والبحث عنه في الصحاري النائية أو في قلب درة راسية في أعماق البحر واقتناؤه لم يكن (كما ذكرت دار الآثار الإسلامية في بيان الوداع) بهدف الثراء

بل من أجل الاحتفاء بالجمال والمعرفة؛ إكراماً لصانعيها، وتوثيقاً لحقبهم التاريخية، وتتبعاً لتطور الفن والثقافة في بني الإنسان.. وتأسيساً على ذلك وعلى تلك الثنائية الفكرية للشيخ ناصر والشيخة حصة، يمكن القول باطمئنان أن محيطهما الأسري غني بالثقافة الفكرية التنوعية مع اتساع في الأفق.

في شخصية الشيخ ناصر صباح الأحمد نجد ذلك الشغف والتمايز الذي يربط بين التاريخ والاقتصاد والسياسة.. ومعهم تلك الإطلالة الفريدة التي تجمع الموروث بالحدثة، وتجسد ذلك حينما نادى في التسعينات، أو قبل ذلك، بضرورة إعادة طريق الحرير القديم، وهو أحد إنتاجات الحضارة القديمة وكان عبارة عن مجموعة من الطرق المترابطة سلكتها القوافل والسفن عبر جنوب آسيا رابطة عديد من الدول، وكان لهذا الطريق، العتيق المندثر، تأثير كبير على ازدهار حضارات قديمة كالحضارة الصينية والمصرية والهندية والرومانية وقد رغب الشيخ ناصر في أن تكون الكويت من مراكز هذا الطريق عند إحيائه من جديد ليربط أوروبا وأفريقيا بالصين وآسيا، وكان أن تحول صوت الشيخ ناصر إلى مبادرة ضخمة انطلقت من الصين عرفت باسم "مبادرة الحزام والطريق" وتضم دولاً عديدة من بينها الكويت، وانسجمت أفكار الشيخ ناصر مع المبادرة الصينية حينما تبني مشروع الجزر ومدينة الحرير شمالي الكويت من أجل تحقيق حلمه القديم في جعل الكويت مركزاً للربط الحضاري بين القارات، وتمكينها من أن تحقق تحولاً تنموياً وحضارياً وثقافياً ومعرفياً واقتصادياً غير مسبوق، وتزامن مع ذلك تبنيه لمشروع رؤية الكويت الاستراتيجية 2035 التي جاءت تحت عنوان "كويت جديدة" بهدف تحويل الكويت إلى مركز مالي وتجاري جاذب للاستثمار

من واقع معرفتنا بالشيخ ناصر وبتوجهاته الفكرية ورؤاه للمستقبل نكتشف أنه يجمع بين الأصالة والمعاصرة، ونقرر أن الأصالة عنده ليست هي التوقع على الذات، ورفض الغير، والعزلة والتجمد بل أنها تعني حفظ الهوية واستيعاب قيم وأخلاقيات سليمة عبر الأجيال والتجانس مع الزمان والتواصل في حياة الكويتيين وأن يكون حاضرهم استمراراً لماضيهم، ومستقبلهم استمراراً لحاضرهم، فلا يقع الانفصام في شخصية الوطن ولا تحدث الازدواجية في ثقافته، كما كان يرى أن المعاصرة ليست هي نقل آخر صيحات العصر في أساليب الحياة في الفن والعمارة والزينة والعطور أو في الغذاء والكساء وفيما نقتبسه من وسائل رفاهية العيش، بل كان يراها في أن الإنسان يعيش أحداث الزمن، ويدرك روح العصر، يبحث في جذوره التاريخية وواقعه ومتغيراته المستقبلية.. كان يراها في بحث الإنسان عن حلول جذرية لقضاياها الأساسية وإيثار الصالح العام على الخاص والنهوض بطموحات الاقتصاد والتنمية إلى آفاق بعيدة وتبني إرادة صلبة لتحويل الأحلام إلى واقع. أما روح الشجاعة والفراسة العربية الأصيلة فنجدها حاضرة في سياساته ومنهجه حينما حارب الفساد وبرز كأحد الداعين للإصلاح...تواضعه جعله دوماً بعيداً عن المباهاة والمفاخرة.. الهدف الوطني عنده آسمى من علو هامة المنصب، وتخطيط التنمية أهم من شغف الكراسي، لذلك قَبِل دوره الجديد في المجلس الأعلى للتخطيط والتنمية. وهنا نشير إلى أنه ربما يكون أفضل تكريم للراحل الكريم هو مواصلة العمل في تحقيق حلمه في جانبه: طريق الحرير، ورؤية 2035.

الشيخ ناصر صباح الأحمد الصباح دخل التاريخ ليس من باب الواجب بل من مداخل الشرف والنزاهة والرؤى التنموية الكبرى ، لذلك سوف تظل سيرته تحمل قيمة أسوار الكويت وأبوابها التراثية التي لا زالت تحتفظ بكثير من الأسرار.

فريال الفريح